(١)

عالمية الرسالة المحمدية
كما يجب أن نفهمها

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ القائل في محكم التنزيل: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، وصفيه من خلقه وخليله ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فلا شك أن الرسالة المحمدية رسالة عالمية ، لم تكن يوما رسالة خاصة بالعرب وحدهم ، أو محدودة بمكان دون مكان ، أو مقيَّدة بزمان دون زمان ، ولم يكن القرآن يوما لقوم بعينهم ، حيث يقول سبحانه: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}، ويقول تعالى: {وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}، فهو منذ نزوله على قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) يخاطب الناس كافة، بمبدأ واحد ، وهدف واحد هو إخلاص العبودية لله (عز وجل) ، وحمل الخير للإنسانية قاطبة ، ونشر السلم والسلام ، والأمن والأمان ، والرحمة والعدل والمساواة بين البشر جميعا .

وقد بعث الله (عز وجل) رسوله محمدًا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) هاديًا وبشيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا برسالةٍ خاتمةٍ عالميةٍ صالحةٍ ومصلحةٍ لكل زمان ومكان، حيث يقول سبحانه : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}،

فاستوجب ذلك أن يكون رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أسوة وقدوة للبشرية كلها قال تعالى: {لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّه وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}، على أن البعد العالمي للرسالة المحمدية ، وصلاحيتها لكل زمان ومكان واضح كل الوضوح في مظاهر كثيرة، منها :

عالمية المبادئ والقيم : فإن الرسالة المحمدية أرست الأخلاق الفاضلة ، والقيم العادلة، والمبادئ السامية ، والأخوة الإنسانية التي تقوي ترابط وتماسك الأمم والشعوب وتعاونها ، حيث يقول سبحانه :{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا }، ويقول (عز وجل) : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }، فهي رسالة عالمية تدعو إلى تعايش أفرادها مع اختلاف معتقداتهم ، في تعاملهم، وفي أعمالهم، وفي أقوالهم، وفي كل شئون حياتهم .

والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقرِّر هذا الإخاء ويؤكِّده ، بقوله: (أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ إِخْوَةٌ) فهو (صلى الله عليه وسلم) يعلن من خلال هذا الدعاء أن الأخوة بين عباد الله جميعا ، لا بين العرب وحدهم ، ولا بين المسلمين

وحدهم ، بل هي أخوة بين بني البشر جميعا ، على اختلاف أجناسهم وأعراقهم ، وألوانهم ، ومعتقداتهم .

وهذا الإخاء الإنساني حقيقة دينية لا ريب فيها ، ويزداد هذا الإخاء ترابطا إذا أضيف إليه الإيمان بالله فتكتمل الأخوة الإنسانية ، يقول سبحانه : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) ، ولقد طبَّق الإسلامُ هذا الإخاء الرفيع، وأقام على أساسه مجتمعا إنسانيا فريدا ، ذابت فيه فوارق الجنس واللون والعرق واللغة ، يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ " وكلمة "أخيه" في الحديث لم تُقيد بصفة ، بل هي على إطلاقها لتشمل عموم الأخوة الإنسانية.

كما خَطَت الرسالة المحمدية بالحضارة الإنسانية خطوات وثابة ، ارتقت من خلالها بقيمة الإنسان إلى منزلة سامية ، ومكانة عالية لم يعرف التاريخ لها مثيلًا ، حيث رسّخ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) دعائم الأخلاق وأتمها ، وأعلى شأن القيم الإنسانية ورفع عمادها ، فقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) .

عالمية الرحمة ، فقد تميزت عالمية الرسالة المحمدية بالرحمة للناس جميعا، حيث يقول سبحانه وتعالى مخاطبا نبيه (صلى الله عليه وسلم) : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}، ويقول سبحانه : {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}، فهي الرحمة الواسعة الفياضة بكل معانيها ، كما نجدها واقعا عمليا أيضا في شخص الرسول

الكريم (صلى الله عليه وسلم) خلقا وأدبًا وسلوكًا ، هذه الرحمة التي أنقذت البشرية من الضلال إلى الهدى ، ومن الظلمات إلى النور ، وأزالت العصبية والعنصرية ، وعم نفعها العالم كله ، فقد سوى الإسلام بين الناس جميعًا ، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، وهي التي جعلت النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول في شأن من عادوه وآذوه: (اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ) ، ويدعو لهم بقوله: (اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) .

ولقد أخبر (صلى الله عليه وسلم) عن هذه الرحمة فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ) ، وبهذه الرحمة والرأفة نجح (صلى الله عليه وسلم) في تأليف قلوب مَنْ حَوْلَه ، وصدق الله حيث قال: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ...}، فقد بلغت رحمته (صلى الله عليه وسلم) بأمته حدًّا يفوق كل تصورات العقول ، حتى شملت الإنسان والحيوان والطير والنبات وسائر المخلوقات .

ترسيخ مبدأ المساواة : فمن القيم التي عملت الرسالة المحمدية على ترسيخها مبدأ المساواة الإنسانية ، الذي قرره الإسلام ونادى به ، احترمًا للإنسان وتكريمً له من حيث كونه إنسان ، ودعوتها إلى السلام بكل ما تحمله الكلمة من معان على مستوى الأفراد والمجتمعات ، يقول سبحانه : {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، فهي رسالة تحمل كلَّ معاني الإنسانية والرحمة والسلام للناس جميعًا ، حيث أَمَرَ الله (عز وجل) بِبرِّ غير المسلمين والإحسان

إليهم ، بقوله سبحانه: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، فالبر الذي هو قِمَّةُ الأدب والإحسان مع الوالدين ، مطلوبٌ هو بعينه مع الناس جميعًا ، والقسط والعدل والوفاء هو خُلق الإنسان مع أخيه في الإنسانية سواء بسواء .

التسامح والاعتدال: كما جاءت الرسالة المحمدية داعيةً إلى التسامح والاعتدال ونبذ كل مظاهر العنف والتشدد ، حيث وجهت الدعوة لجميع الخلق للتعارف والتآلف فيما بينهم ، تحمل السلام للعالم كله ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}، وقال عمار بن ياسر (رضي الله عنه) : (ثَلاَثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ : الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ ، وَبَذْلُ السَّلاَمِ لِلْعَالَمِ ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الإِقْتَارِ) ، فنشر السلام عالميًّا توطيد للعلاقات الدولية والمجتمعية ؛ ولذلك نجد النبي (صلى الله عليه وسلم) يبدأ جميع رسائله ومكاتباته إلى الملوك والأمراء بالسلام .

فنشر السلام في العالم كله صمام أمان للمجتمعات ، ترتفع به دعائمها وتعلو به رايتها ، ويعيش أبناؤها في أمن وأمان وسلم واستقرار ، فيقوى اقتصادهم ، ويعيشون في سعة من العيش ورغد ورفاهية ، ومن ثم يعم الأمن ويكثر الخير

وتفيض البركة ، وتلك بعض مظاهر عالمية الرسالة المحمدية ، التي ينبغي أن يعلنها المسلمون للدنيا كلها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام :

إن عالمية الرسالة المحمدية شرف لهذه الأمة ، ولا غنى للبشرية عنها ، فهي تحمل الخير والنفع للإنسانية جمعاء ، وبها يتحقق التقدم والرخاء ، وبتشريعاتها يأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، وهذا بدوره يحقق الأمن والأمان بين أفراد المجتمع ويصنع جوًّا من التسامح والتحاب الذي هو أحوج ما تكون إليه البشرية الآن ، فالرسالة المحمدية تحمل أبعادًا إنسانية واجتماعية ، وتعمل لخدمة القضايا الإنسانية النبيلة التي تنمي العطاء المجتمعي والإنساني والخيري ، وتعزز روح المسئولية المجتمعية ، وتراعي الحقوق وتفي بالعهود ، وتحافظ على الواجبات مع جميع البشر ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم وأعراقهم ومعتقداتهم ، وقد علمنا ديننا أن خير الناس أنفعهم للناس كل الناس ، وهذا النفع معنى واسع يشمل المساعدات الإنسانية ، كما يشمل جميع المنافع المتبادلة سياسيًّا واقتصاديًّا وتجاريًّا وعلميًّا

وحضاريًّا ، وكما قالوا: ما استحق أن يولد من عاش لنفسه ، وإننا لمأمورون بالإحسان إلى الخلق جميعًا، والرحمة بهم جميعًا ، وحب الخير لهم جميعا .

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، فضلا منك ونعمة إنك أنت العليم الحكيم